

الدكتور غرام

تقدت جامعة بيروت الاميركانية طبيباً من خيرة اطباها بل من خيرة اطباء كندا والولايات المتحدة بل من خيرة اطباء اوربا واميركا وقد كان في جيله لتلامذته وللمدرسة الطبية الاميركانية في بيروت مكان المرحومان الدكتور فاندريك والدكتور ورتبات لتلامذتهما ولتلك المدرسة في جيلها مع بعض التوارق الآتية

(اولاً) ان خدمة المرحوم الدكتور هرس غرام بلغت اثنتين وثلاثين سنة ونيفاً واما خدمة المرحومين للمدرسة فلم تتجاوز التسع عشرة سنة للمرحوم ورتبات والاربع عشرة للمرحوم كرنيلوس فاندريك

(ثانياً) ان الصفوف (الغرف) في ايام استاذينا الكبيرين فاندريك وورتبات كان معدل عدد تلامذتها اقل منه في ايام المرحوم غرام فضلاً عن قصر مدة سني خدمتهما بالنسبة الى مدة سني خدمته كما المصاف. ولذلك فتلامذة المرحوم غرام بلغ عددهم نحواً من خمسة اضعاف عدد تلامذتهما. ولايضاح ذلك اقول ان عدد تلامذة استاذنا الأكبر كرنيلوس فاندريك الذين اخذوا شهادتهم الطبية في ايامه لا يزيدون عن السبعين تلميذاً واما عدد تلامذة المرحوم غرام فبلغ الى السنة الثالثة خمسة تلميذ ونيفاً. وكانوا اي تلامذة استاذنا الاكبر اكثرهم ان لم يكن كلهم من سوريا واكثر هؤلاء الاكثر من لبنان فيما ارجح بخلاف تلامذة غرام فانه كان بينهم الكثيرون من الارمن واليونان حتى كاد اللبنانيون يضيغون بينهم فضلاً عن اتوا من مملكة ايران ومن العراق وكردستان وروسيا ومن الافاضول والبغداد شمالاً وشرقاً ومن قبرص وجزر اليونان غرباً ومن مصر والسودان الى الحبشة جنوباً وكل هؤلاء فضلاً عن من قد جاؤا من المهاجر حملوا معهم اسم غرام استاذاً من اكبر الاساتذة وطبياً من اكبر الاطباء الذين يشار اليهم بالبنان كما كان يشار استاذينا المرحومين الا ان دائرة شهرة المرحوم اتسعت وامتدت على نسبة عدد تلامذته وعلى نسبة تعداد بلدانهم وكثرتها

ففي هذا الاستاذ الكبير نجبه ومضى الى رحمة ربه في سبيل من مضى صباح

الاثنين ٢٧ شباط الماضي (فبراير) ودُفن يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاته
 احس يوم الاثنين في عشرين شباط بشيء من الانحراف في صحته فلم يحفل به وزاد
 ما به من الانحراف يوم الثلاثاء فسبب ذلك الى بدء نزلة صدرية كانت اعتادت
 ان تنابه من قبل واستمر على ما كان عليه من تعليم وزيارات طبية كما دته فذهي
 ذلك النهار لعيادة مريض معصاب بالتهاب دماغي من قبيل مرض النوم او نوع منه
 ويظن انه اخذته عدوى المرض من مريضه هذا . ويوم الاربعاء بعد الظهر
 ذهبي الى وادي شحرور فذهب وعاد قبيل الغروب وهو بحس يقظة برد وقشعريرة
 وقبل ان يصل الى بيته وجد احد اصدقائه ينتظره ليعود مريضاً عنده فذهب
 مع ذلك الصديق على رغم ما كان يشعر به من الضعف والانحطاط . واشتد عليه
 البرد في بيت ذلك الصديق بما لم يستطع اخفائه وتحمله فلتفت بجرامي صوف
 وهكذا وصل الى بيته ومع ذلك بقي يكابر المرض ويقاويه

حكمت مسز غرام قالت لما استفاق من نومه صباح الخميس رأيت البطة ظاهراً
 في قيامه وقعوده ولباسه وساير حركاته بما لم اعهد منه من ذي قبل ولما جلس
 على المائدة رأيت ازرار صدرته غير مغبوظة الزرير وكذلك شريطة خذائه .
 وهذا عالم يسبق له به عادة فانه مذ كان لم يكن يتخاف من الاناقة اللائقة في اللباس
 والخذاء وما اليهما . قالت فعلت بما رأيت انه ليس على استواء في صحته فقلت له
 اليس من الافضل ان تستريح اليوم في فراشك وترسل الى تلامذتك انك باق في
 البيت فاجابني احب الي ان الاقي حتى في شغلي لا على فراشي قال هذا وترك
 البيت الى المدرسة وهيئة التعب باذية على وجهه وفي جميع حركاته

ولحظ تلاميذه في المستشفى اثناء سماعه تقاريرهم الطبية كل عن مريضه او
 مرضاه انه لا تجاؤ له على استماعها كما دته ولحظوا ان احدي شرائط خذائه
 محلولة وانه حاول عقدها غير مرة فلم يقدر فتركها على حالها . ولما اتم سماع التقارير
 قام يريد الدخول الى احدي الغرف الخصوصية فلم تساعد قواده فمضت الى الارض
 لا يني فجلس حلاً الى سرير في المستشفى فبقي فيه الى ان لفظ انقاسه الاخيرة

لم تغب شمس ذلك اليوم حتى عرفت بيروت عن آخرها بمرضه واشتد قلق
 الناس عليه يوم الجمعة مساء وواردوا رجالاً ونساء على بيته وعلى المستشفى يألون
 عن صحته وزاد اضطراب المدينة عليه مساء السبت ونهار الاحد فلم يبق حديث

غير حديث غرايم أو الحديث من غرايم ومن ضعف الأمل بشفاؤه وعظم الخطارة التي تخسرهما المدينة والبلاد صوماً يفقدوه

وبدأ الناس يتحدثون بأخلاقه وما كان من شدة اهتمامه بمرضاهُ فضلاً عن مهارته في صناعته واخذوا يقعون عنه أقاصيص كانت الى ذلك الوقت محفوظة في صدور أصحابها أقاصيص عما كان يفعله سرّاً من مساعدة من كان يرّاهم محتاجين الى المساعدة حقيقة ويستحقونها وعن عرفانه الجليل لمعارفه واصدقائه ولا سيما لمن كان منهم اندفع بمامل شهامة لتقديم خدمة له ايّما كان

سمعت محدثاً يحدث قال اول ما جاء الدكتور غرايم الى بيروت كان رقيق الحاشية وكان يجب ان يظهر بمظهر اجتماعي يليق به وبمناسته ومركزه فذهب الى فلان احد الطباطين وقال له هل تصنع لي ثلاث بذلات ثياب وتعملني باليمن مدة قال الخياط مظهراً الارمحية والمرة نم بكل سرور اصنع لك ما شئت وامهلك باليمن ما شئت

حدثت بعد ذلك ان مرض هذا الخياط فاستدعي الدكتور غرايم ولما اُبلّ طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا ورقة حساب لك عندي فقد سبق قدفعها لي معروفاً قال الخياط لكن يا دكتور انا موثق في شغلي لله الحمد واستطيع ادفع حسابك ولا اشعر بشيء من التفتيق على نفسي وعيالي ولا على شغلي ورأس مالي فلم يسمع المرحوم برهانه ولا اصغى لالحاحه في قبول اجرة زيارته ثم حدثت ان مرضت امرأة الخياط فدعاها لعيادتها وبعد ان تماثلت الى الصحة ولم يبق من حاجة الى تطيب ولا الى طبيب طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا حساب لك عندي وامر الخياط على ان له حساباً. وعلمت من المحدث ان الدكتور رحمه الله ما زال الى ان توفي لا يتقاضى صديقه الخياط الا نصف ما كان يتقاضى امثاله ممن كانوا يتحسبون عليه

لما اشتدّ الحال بالدكتور نهار الاحد لم يبق بيت من بيوت بيروت المعروفة لم يعرف ذلك كان مشات من التفرقات او التلقؤات كانت تنقل اخبار مرضه وتقارير الاطباء اليه بل كان يتناقل بأسرع من البرق ما كانت تهمس به عنه الاطباء همساً فيما بينهم. واسبابه ان المتوافدين الى بيته والى المستنقضى للسؤال عنه كانوا كثيرين يأتون جماعات جماعات فتلتي الجماعة الراحة مع القدمة احياناً

على باب بيته او على بوابة المستشفى وكان الراجعون يألون وهم في الطريق وعلى ابواب بيوتهم قبل ان ينزلوا من مركباتهم او اوتومبيلاتهم عن سلامة الدكتور وماذا سمعوا عنه وما يجيرون به كان يتناقله السامعون الى جيرانهم ومن هؤلاء الى جيرانهم وهلم جرا وكانت الالتهاب اشد حزنًا وجزعًا عليه من الآباء . واي ربة بيت معروف في بيروت لم تكن تعرف الدكتور غرام ولها تمام الثقة به ان من جهة نفسها او من جهة زوجها واولادها

يوم الاحد مساء ظهرت عليه امارات التحسن نجف وجيب القلوب واستبشر الناس وباتوا يتمنون بالآمال وكذلك اصبحوا وقامهم اختبار الاجيال الذي اعرب عنه الشاعر حيث قال

وسالنتك الليالي فاضفرت بها وعند صنو الليالي يحدث الكدر
فانهم قيل ان تهرم هزة الفرح بخير تحسن حاله فوجئوا بخبر موته وكان ذلك الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ صباحًا . توفي فجأة بما وصل من الالتهاب الى مركز التنفس فماد التراب الى انثراب وحادت النفس الى خالقها . وما كان اكثر الباكين عليه وما كان اكثر المسترحمين

اما الجامعة الاميركانية فكانت ما اصابها زوال انتفضت له من اساساتها وحادت منه ذات اليمين وذات الشمال جدرانها فوقفت من فيها حيارى اساتذة ومعلمين وتلاميذة لا ينسون بينت شفة وخفتت اصواتهم جميعاً

اما التلاميذة الشيبون فكنت تراهم سقع الوجوه مبهوتين مطرقين باعينهم الى الارض كأنهم يخافون ان يتكلموا فيقولوا غير ما يريدون . ولما اعلن نائب الرئيس خبر وفاته كان كالمتمثر بدموعه نحس ذلك في صوته وكانك به لا يجب ان يصدق ما يقول لهولة وشدة وقعوه في نفسه فذكرتني حالته بقول القائل منذ الف سنة طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فرغت فيه بأمالي الى الكذب حتى اذا لم يدع لي صدقة املا شرقت بالدمع حتى كاذ يشرق بي تعثرت به في الافواه السُّبها والبرذ في الطرق والاقلام في الكتب وكأني باياته هذه تصور احساسات نائب رئيسنا وجميع اساتذتنا واحساسات بقية المعلمين والتلاميذ ولاسيما تلاميذ القسم الطبي

ولم يلبث الحال طويلاً بعد اعلان خبر الوفاة حتى نظر اهل راس بيروت

الراية الاميركائية تخفق عنقوقة على سارية عالية فوق برج بناء القسم العلمي ثم لم تلبث الريح التي كانت تهب كليلة ان مبيت هوجاء تاثرة تحاول تمزيق الراية او ترمي بها في مجاهل النضاه فلما اعيهاها ذلك عمدت الى السحاب فساقتها امامها جبالاً وعقدت مياهها دموعاً اراقها حزناً بالغاً على من استنزف ميون البيرويين دمماً وقلوبهم اسمى واسفناً ولاسيما ابناء جامعتها الاميركائية

نقل جثمان المرحوم بعد ظهر الاثنين الى صدر متدى الجامعة الاكبر واقبل تلاميذه واصحابه يودعونهُ ويرونهُ لآخر مرة في هذه الحياة الدنيا فتوارد المودعون زرافات زرافات من بعد ظهر الاثنين الى الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء وفي الساعة العاشرة صلي عليه فكان المشهد رهيباً جداً فانه على امتلاء النادي حتى لم يعد يسع الحضور وكاد لا يستطيع متقدم ان يتقدم ولا متأخر ان يتأخر كان الكوت تاماً لا يجسر متهد ان يتهد ولا باك ان ينسج حتى ولا مصدور ان ينفث. وبعد الصلاة حمل التابوت تلامذته الى بوابة الطيبة حيث وضع في سيارة خاصة والناس قد ملأوا الساعات والطرقات والمشارف المجاورة وسارت به جنازته وكأنا سارت المدينة كلها ورأها ولا غرابة في ذلك فان الشخصية الكبيرة تؤثر في النفوس على نية بعد همتها واتساع دائرة عملها سواء كان صاحب تلك الشخصية طيباً او معلقاً طالماً من علماء الدين الافاضل او من علماء الدنيا لا فرق او كان ذا منصب شغفله لوجاهته وغناه فانه يكتب في النفوس وعلى القلوب باعماله صورة تظهر بالصورة التي اراها امام عيني وانا اكتب ما اكتب عن هذه الشخصية الكبيرة اعني شخصية الدكتور غرام من يسع الخير لا يعدم جواريته لا يذهب العرف بين الله والناس

ولد الدكتور غرام في كرتون من اعمال كندا في الخامس عشر من آذار (مارس) سنة ١٨٦٢ وكان كبر اولاد ابيه من امراته الثانية فمرح لسة عشر احملاً واختاً وكانت كرتون مسقط رأسه مدينة صغيرة حينئذ لكن كان فيها من المدارس العمومية ما لا ينقص عن غيرها من امثالها فدرس فيها الى ان بلغ السابعة عشرة وعلم بضعة اشهر في بعضها ثم ترك التعليم واقبل على صناعة ابيه وكان صانع مركبات وجعل همه صيغ المركبات وتلوينها وبعد ان اتقن هذه المهنة عاد الى طلب

العلم وتتلذذ بجامعة تورنتو ثم جامعة ولاية ميشيغان حيث اخذ شهادته الطبية ثم ارتبط بخدمة مجمع برسطن التبشيري طبيباً لارسالية عينتاب . وفي طريقه اليها مر بالاستانة وصدق على شهادته الطبية . وفيها هو هناك تعرف باينة احد مشاهير الوعظاء الاميركان فاقترن بها في الثالث من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٨٥ فكانت له افضل رفيق ومعين الى ان توفاه الله

وبقي في خدمة الارسالية في عينتاب ثلاث سنوات رفيقاً للدكتور شبرد ومساعداً له في مستشفى تلك المدينة ومدرستها الطبية التي كانت تابعة لكلية تركيا المركزية او الوسطى (Central Turkey Conference) وانتقل في شتاء سنة ١٨٨٨ الى حلب حيث بقي نحواً من سنة في خدمة ارسالية في تلك المدينة ومن هناك انتقل الى بيروت سنة ١٨٨٩ وارتبط بالكلية الاميركانية الطبية فلم يلبث ان تعين استاذاً فيها ولم يتم السنة حتى مكن نفسه في تقوس التلامذة ورفاقه من الاساتذة والمعلمين واستلك اكرام دائرة مديري الكلية ولم تأت السنة الثالثة حتى عرف اسمه في بيروت وفي اماكن عديدة خارجاً عنها وصار يقصد من الجهات البعيدة ويرجع اليه في بيروت عند الشدة

عرفت من احد تلامذته سنة ١٨٩٥ ان تلامذة الكيمياء وكان قد تولى تعليمها بداهي تتيب استاذها كانوا يجتهدون ان يراجعوا مطولات هذا العلم تحمكاً به وتبحراً بلهيم عليه فكانوا يرونه ابداً فوقهم يعرف ما عرفوه وما يزيد عنه وهكذا اتفق لغريم في فرع آخر لم يكن استاذةً لجرّبوا ما جرّبه طلبة الكيمياء فوصلوا الى ما وصل اليه تلامذة ذلك العصف

قال فيه احد رفاقه الاساتذة انه « عث الكتب » لانه كان لا تفارقة الكتب يطالعها مطالعة درس وتسحر لا مطالعة تله وتشجع فليعتبر به المعبر وليعلم ان شهرته ومكانته في النمرس لم تأتو عضواً ولا اتفاقاً ولكنه اكتسبها بشق النفس وبعد الهمة والمثابرة على العمل

وقبل ان اختم كلمتي عنه اقول انه كان شديد العناية بمرضى يظهر اعظم اهتمام بمرضى مهمي كان ويبالغ في فحصه فلا يفرغ من ذلك حتى يملك ثقة مريضه تمام الامتلاك . وكان فوق ذلك حلو المعشرفكة الحديد سريع الملاحظة لا يتبرم بطيل ولا يتسخر من كثرة مراجعة ولو كانت في غير محلها جبر ضومط